فكاهات

رواية

مكايد الصينيين[1]

روى فتى انكليزي الاصل عن نفسهِ الواقعة الآتية فقال

ولدتُ في باكين عاصمة الصين من ابوين انكليزيين ولما بلغت السنة الخامسة من عمري ارسلاني الى المدرسة الملكية فتلقنت فيها العلوم اللازمة وعلى الخصوص اللغة الصينية فاتقنتها جيداً ودرست لهجتها وفلسفتها فكنت لا أُفرَقُ فيها عن علمآء الصينيين في نغمة الكلام وحسن التعبير وألفت عوائد الصينيين واحوالهم وملابسهم حتى صرت اذا مررت في الاسواق لا يشك احدٌ انني منهم فكان ذلك مما سهل لي ان دخلت في بلاط ابن السمآء امبراطور الصين فحظيت عندهُ وعهد اليّ في اشغالٍ كنت اقوم بها على غاية ما يرام

ومرت عليّ في منصبي خمس سنوات قضيتها في الدأب والاجتهاد والقيام بما القي على عاتقي من عبء الاشغال والمهمات الخطيرة ورأيت بعد ذلك ان لا بد لي من طلب الراحة وترويح النفس فاستأذنت الامبراطور فسمح لي ببضعة اسابيع عزمت ان اقضيها في هنغ كنغ عند بعض ذوي قرابتي واتمتع بمشاهدة ابنة عمّ لي هناك اسمها جوليا كانت قد زارتنا مع والدها منذ سنة فاحببتها واحبتني وبعد ان عادت الى هنغ كنغ اخذت ترادف اليّ رسائلها وتلح عليّ في رد الزيارة

ولما اتممت معدات السفر ودعت والدي وسافرت برّاً وكنت كلما بلغت مدينة استقبلني اهلها بالاجلال والترحاب لسببين اولهما اني في خدمة ابن السمآء وثانيهما

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

اعتقادهم التامّ اني صيني الاصل من لون وجهي وملامحي ونطقي . ولما بلغت مدينة هان شو تذكرت صديقاً لي اسمهُ شي لي لنغ وهو حاكم ايالة شي كيانغ وكان رصيفي في المدرسة ثم تفرقنا فتعينت انا في منصبي وتعين هو حاكماً للايالة المذكورة فلم نتمكن من زيارة بعضنا بعضاً مدة تلك السنوات الخمس ولما رأيت نفسي وقد القاني الترحال في مدينتهِ عزمت ان ازورهُ فسألت عن داره وتوجهت اليهِ . وكنت اتوقع ان اراهُ غض الشباب قوي البنية معتدل الاعضآء لانهُ لم يكن باكبر مني سناً ولكني عند مقابلتي لهُ رأيت كانهُ قد زاد في عمرهِ ربع قرن فانهُ كان مهزول البنية ضعيف الجسم قد انحنت قامتهُ وارتسمت على وجههِ أمارات الكبر فاستغربت ذلك لعلمي ان اصحاب الخطط العالية يكونون في الغالب اصحاب صحة جيدة وابدان سمينة الا اذا كانوا من ذوي الامانة فشغلتهم مهام وظائفهم عن التمتع بالراحة والتبسط في الملذات . ومع ما كان عليه شي لي لنغ من الانقباض الباطن وما يتنازعهُ من الهموم فانهُ قابلني بالبشاشة والترحاب فقضيت معهُ بقية ذلك اليوم ونحن نتشاكى الاشواق ونتذكر ما سبق من ايامنا المدرسية الى وقت العشآء . وفي المسآء جلست واياهُ نتحادث فقلت لهُ اني كنت عازماً ان اهنئك ايها الصديق بما قسم لك من هذا المنصب الخطير ولكني اراك غير مسرور منهُ فلا ادري ماذا يسرّك لأتمناهُ لك . قال تمنَ لي دعة البال فقد عدمتها في هذه الايام الاخيرة ولذا تراني في اسوأ حال . قلت وما عساهُ ان يقلق بالك وانت في هذه النعمة وسعة العيش وفوق ذلك فاني اعلم يقيناً ان ابن السمآء يودّك كثيراً وتسرّهُ اعمالك . قال اجل اني لا انكر ذلك من ابن السمآء الا ان في حوزتي وفي بلاطهِ اناساً لا ينامون ما لم يأتوا مفسدةً او دسيسة فهم ينصبون لي الاشراك التي لا يمكن تخطيها يرومون اسخاط ابن السمآء عليّ ليقتلني ويوليهم منصبي

وكانت تظهر عليهِ في اثنآء حديثهِ علامات الكمد والقلق الشديد فأثر فيّ ذلك وقلت لهُ الا يمكنني ان اساعدك بشيء ايها الصديق . قال ربما مكنك تقرّبك من الامبراطور ان تستعطفهُ عليّ ولكن الداهية الكبرى انما هي في بلدتي هذه

ولست اعلم كيف اعالجها . قلت لهُ الا تفصح لي عن جلية امرك لعلي استطيع ان اساعدك في هذه البلدة ايضاً ولو برأيٍ او نصيحة . فاطرق هنيهةً ثم تفرّس فيّ وقال اسمع فاقصّ عليك امري . اني قضيت الاربع سنوات الاولى من حكمي في غاية الراحة والدعة وكنت راضياً عن الرعية كرضاها عني ولكن حرك الحسد على ما اظن شيطان الغيرة في قلوب بعض المقرّبين اليّ فعمدوا الى ارتكاب فظائع هي من ورآء طور الادراك اعيتني الحيلة في كشف سرها والوقوف على مجترميها فرُميت من اجل ذلك بالعجز والقصور عن سياسة الرعية وتواردت شكاويهم الى البلاط وهي ولا شك ستؤثر هناك وتكون سبباً لزوال نعمتي . اما تلك الحوادث فانهُ ما ابتدأت السنة الخامسة من حكمي حتى بدأت معها طلائع الشؤم فقد حدث في هذه السنة اختفآءات غريبة لم اتمكن مع كل مقدرتي من كشف اسرارها ففي الشهر الاول بلغني ان فتىً يدعى فو ابن صيرفي شهير اختفى بغتةً فقام الناس لهذا الخبر وقعدوا وبذلت كل ما في طوقي لمعرفة مقرّهِ وكيفية اختفآئهِ فلم اترك واسطة او سعياً حتى استخدمتهُ ولكن على غير جدوى وجل ما امكننا معرفتهُ ان فو المذكور تولع كغيرهِ من ابنآء الاغنيآء بلعب الميسر وانهُ سرق يوماً من مصرف والدهِ مبلغاً كبيراً من المال واختفى في نفس اليوم ولم يوقف لهُ على اثر . وفي الشهر الثاني اختفى ايضاً تاجر شاي شهير يدعى شان سي في احوال تشبه احوال الاول فضاعفنا الهمة وبذلنا الجهد في البحث عنهُ ولكنا لم نظفر بطائل . وفي الشهرين التالين فقد ايضاً اربعة من كبار المتمولين في البلدة وفي الثلاثة الاشهر الاخيرة اختفى خمسة غيرهم . وكنت في اثنآء ذلك قد بثثت الجند والجواسيس في كل ناحية واقمت حراساً على محيط البلدة بحيث لا يمكن ان يخرج مخلوقٌ ما برّاً او بحراً بدون جوازٍ مني وهذا ما اكد لي انهُ لا يمكن بل يستحيل قطعاً ان يكون هؤلآء المفقودون قد غادروا البلدة . وقد فتشت المدينة بيتاً فبيتاً ولا سيما محلات القمار لعلي اعثر على هؤلآء الاشخاص ان كانوا احيآء او على جثثهم ان كانوا قد ماتوا او قتلوا او على رمادهم ان كانوا قد أُحرقوا فلم اقف على شيء من ذلك فلا بد ان يكونوا قد تحولوا الى بخار

تصاعد في الجوّ والا لتمكنا من الاهتداء اليهم

فاستغربت الامر جدّا واخذت اجول مع الحاكم في الاسئلة فتبين لي انهُ وجنودهُ وشحنتهُ لم يدعوا ضرباً من ضروب الاحتياط الا استخدموهُ وتحققت ان الاشخاص المختفين لم يخرجوا من المدينة فغصتُ في تيار الافكار وعزمت ان اسعى في كشف هذا المعمى مساعدةً للحاكم ورغبةً مني في كشف مثل هذه المخبآت لميلٍ خصوصيّ فيّ اكتسبتهُ مما قرأتهُ عن مساعي شحنة انكلترا في كشف امثال هذه الخفايا . ورأى شي لي لنغ استغراقي في التأملات فقال ماذا ترى فقلت اني افكر في مساعدتك على هذا الامر فتبسم استخفافاً بقولي ثم عاد فقال ربما نوفق بمعونتك الى حل هذا المعمى واذا امكنك ذلك فلك مني ما تطلب . وكانت كل دقيقة تمرّ تزيد فيّ رغبة السعي فوعدتهُ ان ابقى عندهُ الى ان اتبين الامر « والاّ فلا اكون انكليزياً »

وفي الصباح التالي قمت فاصلحت ثيابي الصينية وصبغت وجهي وشعري ببعض الالوان وخرجت من غرفتي فرأيت الحاكم في ردهة الدار ولما رآني لم يعرفني واستغرب دخولي فكلمتهُ فلما سمع صوتي عرفني وتعجب من تغيير هيئتي فتناولنا طعام الصباح وخرجت بعد ان وعدتهُ ببذل الجهد في تنسم اخبار ذلك الاختفاء الغريب

وخرجت الى شوارع المدينة فجعلت ابحث عن محلات الميسر واتفنن في اساليب الاهتداء الى غرضي فتارةً ارى نفسي قريباً من المرمى وتارةً اراني بمراحل عنهُ فاكاد اقنط منهُ ولكنني تجلدت وطفت اسواق البلدة وانا اقف امام كل مخزن اسمع حديث من فيهِ وهيئتي الظاهرة تدل على سذاجة عظيمة اخفي من تحتها تأجج الآمال والافكار . ولبثت كذلك الى ان مال النهار فلم استفد شيئاً وعزمت على الرجوع من حيث اتيت وقد ايقنت ان هذه المهمة فوق استطاعتي وانها اعسر مما ظننتها لاول وهلة . فسرت الهوينى وانا مطرقٌ في الارض اتأمل ولما بلغت منتصف الشارع استلفت نظري اثنان تلاقيا و بعد ان اكملا عبارات السلام قال احدهما

للآخر اعذرني فاني لا استطيع ان اطيل الوقوف معك الآن لان عليّ اشغالاً مهمة ولكني آمل ان اراك هذا المسآء عند بائع التوابيت . فقال الثاني لا بأس وستراني هناك في الميعاد ثم افترقا وسار كلٌّ منهما في طريقهِ . ولم يكن في كلماتهما شيء مورّى ولكنها اثارت في صدري عاصفةً وملأت رأسي افكارًا وشعرت ان نظري يتبع المتكلم الاول عن غير قصدٍ ثم وجدت قوةً تدفعني الى اتباعهِ فسرت وكنت اكرر كلماتهِ الاخيرة « آمل ان اراك عند بائع التوابيت » وانا افكر في ما عسى ان يكون هذا الاجتماع في محل بائع توابيت وحدثتني نفسي ان ربما يكون في الامر بابٌ اتوصل منهُ الى كشف ما انا ساعٍ ورآءهُ . واذ ذاك اسرعت الخطى لاتبع الشخص المذكور وكان قد بلغ منتهى الشارع وعطف يمنةً فتبعتهُ الا انهُ كان قد سبقني شوطاً فلم أرهُ ورأيت في آخر الشارع الثاني طريقًا تؤدي الى الشمال وأخرى الى اليمين فوقفت حائرًا في اي الطريقين آخذ وبعد بضع دقائق رأيت الشخص المذكور قد خرج من باب بالقرب مني وانقلب راجعاً بدون ان ينتبه اليّ . وعزمت ان لا ادعهُ يفوتني هذه المرة كالاولى فسرت ورآءهُ وهو يتقدمني الى ان دخل مطعماً وطلب شيئًا يأكلهُ فتحققت انهُ سيبقى هناك على الاقل نصف ساعة وحينئذٍ عدت الى حيث وجدتهُ حتى بلغت الباب الذي خرج منهُ وبينا انا اتفرس فيه اذ وقعت عيني على هذه الكلمات « محل وِن لي لمبيع التوابيت » . فتقدمت وقرعت الباب ولما فتح دخلت فاستقبلني رجل قصير القامة عيناهُ صغيرتان ولكنهما تتقدان تحت حواجبهِ السودآء وهيئتهُ تدل على المكر والاحتيال . فقلت لهُ ان لي قريباً توفي وقد جئت اشتري لهُ تابوتًا . فجعل ون لي يريني اصناف التوابيت وانا لا اختار منها شيئًا واخيرًا قال لي اعطني المثال الذي تريدهُ فاصنع لك المطلوب بكل سرعة فسألتهُ هل يوجد عندهُ غير ما اراني فقال نعم ان عندي مستودعاً عظيماً في السرداب الذي تحت قدميك ولكن كل ما فيهِ كالذي رأيتهُ . فاقشعرّ بدني عند ذكرهِ السرداب ثم اعطيتهُ وصفًا وقياساً وامرتهُ ان يصنع لي تابوتًا وان يرسلهُ متى تمّ الى منزلي واعطيتهُ عنواني . ثم عدت الى المطعم فوجدت الشخص المعهود لا يزال

جالساً الى مائدة الطعام فدخلت وجلست بالقرب منهُ وطلبت شيئاً آكلهُ . وجعلت في اثناء الطعام اتفرس في الفتى ثم فاتحتهُ الحديث فكان يقتضب اجوبتهُ ويختصر الكلام وهو لا يكاد ينظر اليّ . فلما فرغت واردت ان احاسب صاحب المطعم اخرجت من جيبي بعض القراطيس المالية والنقود . فلما رأى الفتى ذلك حملق ببصرهِ وتغيرت هيئتهُ وجعل يكلمني بأنس وكان ذلك ما اتمناهُ فاخذنا في الحديث واخبرتهُ اني ابن رجلٍ مثرٍ من باكين واني جئت بلدة هنغ شو وانا لا اعرف احداً وقد تضايقت من الوحدة وقلة التسلية . ثم اطلعتهُ خفيةً اني ميالٌ الى لعب الميسر فاهتزّ طرباً وقال اذا كان كذلك فانا رهين امرك وان شئت اخذتك الليلة الى محل سري نلعب فيهِ مع بعض الاصحاب وعسى ان يساعدك الحظ فتربح مقدار ما تنفقهُ في سفرك

ولبثنا جالسين الى ما بعد الغروب بنحو ساعة فقال هلمّ بنا وخرجنا وانا اتبعهُ وقد أيقنت انني سابلغ المرام . ولم يزل سائرًا امامي الى ان بلغ محل بائع التوابيت فقرع بابهُ قرعات غريبة ولما فتح الباب دخلنا واستقبلنا ون لي صاحب المحل فعرّفهُ رفيقي بي وقال لهُ اني ابن عمهِ وقد جئت حديثاً من باكين . ولم يكن ون لي يهمهُ من يكون الزائر بشرط ان يكون مثرياً فادخلنا ردهة فسيحة في آخرها سلم نزلنا فيهِ الى عمق خمس عشرة قدماً ونحن في ظلمة حالكة وهناك قرع رفيقي باباً آخر دقاتٍ معلومة ففتح لنا فاذا حجرةٌ ذات نور ضعيف على محيطها توابيت مجهزة تنبعث منها روائح الخشب المختلف الاجناس وفي وسط الحجرة مائدة عليها مبالغ من الاصفر الوهاج والقراطيس المالية وحولها خمسة او ستة اشخاص يلعبون عليها فتقدمنا وبعد التحية اختلطنا معهم في اللعب . وكنت تارة اربح وتارة اخسر وانا بالحقيقة لا ابالي باللعب ولكني كنت ممثلاً بكاس الآمال وقد طمعت في الوقوف على سرٍّ يؤدّي الى معرفة شيء من الغاية التي اسعى اليها . وكان بائع التوابيت ذا مهارة غريبة في الكسب فكان يربح اموال اللاعبين بكل سهولة وكان الجالسون ينصرفون الواحد بعد الآخر بعد ان تخلو جيوبهم ولم يبقَ في المحل سوى رفيقي الفتى وانا . ورأيت

ان قد تمادى بنا الوقت فطلبت الانصراف غير ان بائع التوابيت كان يلحّ علينا بالبقآء قليلاً واسترسل في اللعب مع رفيقي فربح رفيقي مبلغاً جسيماً وظهر تأثير الخسارة على وجه بائع التوابيت . ولما لم يعد في امكاني اللبث نهضت وقلت لهما اني سافارقكما واذهب فحيتهما وخرجت من الباب واخذت في صعود السلم وما كدت ابلغ منتهاهُ حتى سمعت صوت متوجعٍ يئنّ ثم تبعهُ لطمةٌ وسقوط جسمٍ الى الارض . فارتعدت مفاصلي ووقفت مصغياً لاتحقق ذلك واذا ببائع التوابيت يناديني قائلاً ارجع ايها المحترم فليس الخروج من هنالك . وكانت الظلمة شديدة فقلت لهُ اين رفيقي قال خرج من الباب الآخر فتعال اتبعك بهِ . فنزلت السلم متحذرًا وما بلغت باب الغرفة التي كنا فيها حتى لمع امام عينيّ نور ساطع وشعرت بضربة شديدة على ام راسي اعدمتني رشدي فسقطت الى الارض مغشياً عليّ

ولما افقت وجدت نفسي في حجرة اللعب المذكورة فقمت بتأنّ وجعلت ابحث في جدرانها فلم اجد فيها منفذًا وهي محاطة بالتوابيت . اما الباب فكان مقفلاً باقفال حديدية ولم ارَ احدًا سواي فعدت الى وسط الحجرة فرأيت على مائدة اللعب تابوتًا فظننت انهُ أُعدّ لوضعي فيهِ فاقتربت منهُ واذا ضمنهُ جثة صديقي الفتى وعلى رأسهِ اثر ضربة كالتي اصابتني . وللحال برقت امامي الحقيقة وعلمت ان ون لي بائع التوابيت لم يتعاطَ هذه التجارة الاّ لاقتناص الاغنيآء وسلب اموالهم فانهُ يجرّهم الى مغارتهِ ويقتلهم ثم يودعهم في هذه التوابيت ويحتال في نقلها الى حيث يطمرها بدون رقيب وان الاشخاص الذين يبحث عنهم الحاكم قد اختفوا بهذه الطريقة . وعلمت ان ليس لي وقتٌ طويل للتفكر فللحال اخرجت جثة الفتى من التابوت وخلعت ثيابي فالبستهُ اياها ولبست ثيابهُ ثم القيتهُ على الارض حيث كنت ونمت محلهُ في التابوت . وما كدت افرغ من ذلك حتى شعرت بوقع اقدام ثم فتح الباب ودخل رجلان او اكثر سمعت بينهم صوت ون لي فتقدموا الى الجثة وقد ظنوها اياي فرفعوها الى تابوت آخر واقفلوهُ ثم تقدموا فاقفلوا عليّ التابوت ايضاً وعلمت انهم سينقلونا الى الخارج فعزمت انني اذا بلغنا الشارع اصيح واجتهد في كسر التابوت

واستعين بالمارة على الخلاص . ثم شعرت انهم تقاوا رفيقي اولاً لانهم خرجوا ولم اعد اسمع صوتهم ووجدت لحسن حظي سكيناً في جيبي فاحتلت بها على فتح ثقب في الخشب مقابل انفي فكنت اتنفس منهُ واختبرت خشب التابوت فوجدتهُ رقيقاً غير متين وان في استطاعتي كسرهُ متى شئت . ومضت عليّ بضع ساعات وانا انتظر فعاد الرجال وحملوني الى الباب فصعدوا بي السلم الى المخزن وسمعت ون لي يوصي الرجل الآخر قائلاً اذا اعترضك احدٌ وسألك عن هذا التابوت فقل انهُ تابوت فارغ تنقلهُ الى محل فلان واذا بلغت الشاطئ فألقه حيث القيت السابقين . فارتجف جسمي لدى سماع ذلك ولكنني تجلدت فحملني الرجل الآخر الى عربة امام الباب وجعل يجرها هو بيدهِ . ولم يزل سائرا بي وانا لا اعلم الطريق حتى شعرت بوقوف العربة ثم اقترب منها بضعة رجال عامت من قعقعة سلاحهم انهم الحرس وسمعت احدهم يقول للرجل ما هذا الذي معك . فقال هو تابوت فارغ اوصلهُ الى منزل ... حسب طلبهِ . فامرهُ الشرطي بالمرور . ولما همّ ان يجرّ العربة وضعت فمي في الثقب وصحت بملء صوتي « لقد كذب القاتل فليس التابوت فارغا » ثم تمطيت فكسرت التابوت واسرع الشرطي فساعدني واخرجني منهُ والقى القبض على الرجل

وتوجهت توًّا الى الحاكم وكان قد قلق لغيابي فاخبرتهُ بجميع ما حدث فسرّ سروراً عظيماً وهنأني بنجاتي من هذه التهلكة ثم وجه فالقى القبض على بائع التوابيت وجماعتهِ واستعملوا العذاب الصيني المشهور في تقريرهم فأقرّوا بأعمالهم الجهنمية واعترفوا بقتل الاشخاص الذين اختفوا سابقاً وبذلك تمكن شي لي لنغ من ارضاء ابن السماء بعد ان كان قد سخط عليه فرفع مقامهُ وزاد في اكرامهِ

وبعد ذلك عدت فاكملت سياحتي وزرت اسرة عمي فلبثت عندهم ايامـاً ثم عدت الى البلاط ولا يزال شي لي لنغ يكاتبني ويستهلّ رسائلهُ بشكري لما صنعت معهُ من الجميل